سلسلة

اللهم قوِّ إيمانَنا

[١]

حديث الأفئدة

تأليف : د. على راشد

ريشة : أسامه أحمد نجيب

دار الفكر العربي

obeikandl.com

تضايقتُ كثيراً من هذا الضَّجيج والصَّخب والأصوات العالية المنبعثة من المبْنى السَّكنيّ الذي يقومون بتشييده بجوار منزلنا. فصوتُ آلة رفع المواد الثقيلة - التي تحملُ الطوب الأسْمنتيَّ والحديد والخرسانة إلى أعلى - ذو صرير مُزْعج للغاية، وأصواتُ دقّ المسامير داخل ألواح الخشب بطريقة مُستمرة وعلى وتيرة واحدة، مُجهدة لطبْلة الأذُن أيّما إجهاد، أمّا كلامُ عمّال البناء وهُمْ يعْملُون، فهُو أشبهُ بالصُّراخ، وتيقنتُ أنّها حربٌ مُعلنةٌ على الأعْصاب، وقتْلٌ للرّاحة والهُدوء طوال اليوم، مع سبق الإصْرار والتّرصُّد.

ومرّت الأيّامُ ثقيلة وأنا أُمنّي نفْسي بيوم ينتهي فيه البناءُ ويكتملُ، لتضع الحربُ أوزارها، ويعُودَ الهدوءُ إلى المكان، والرّاحةُ إلى النفْس.. وفعْلاً بعد عدّة شُهور قليلة جاء هذا اليومُ، وانتهى البناءُ السّكنيُّ المجاورُ لمنزلنا، وتمّ طلاؤهُ باللّون الأبيض الجميل.. واسْتعدّ أصحابُهُ لتأجير شُققه الّتي تأخّر بعض الوقْت.

وفي أحد الأيام شاهدْتُ من النّافذة يمامةً وديعةً تقفُ على فتحة صغيرة أعدّتْ في حُجرة الطّهي بالدّور الثّالث الموازي لشقّتنا، والّتي سيضعُ فيها السّاكنُ المنتظرُ شفّاطاً لطرد الرّوائح غير المرغُوب فيها، والنّاتجة من طهي الأطعمة المختلفة. ووجدْتُ نفْسي أدقّقُ النّظر في هذه اليمامة البديعة - دُون أنْ تشعُر بي - وأُشبعُ النظرَ في جسْمها الدّقيق الانسيابيّ، وريشها الذي يميلُ إلى اللّون البُنّيّ الفاتح، مع بعض الرّيشات ذات اللون الأزرق الفاتح مثْل لون السّماء الصّافية.. وتمتمْتُ في نفْسي: «سُبحانَ اللهِ العظيم».

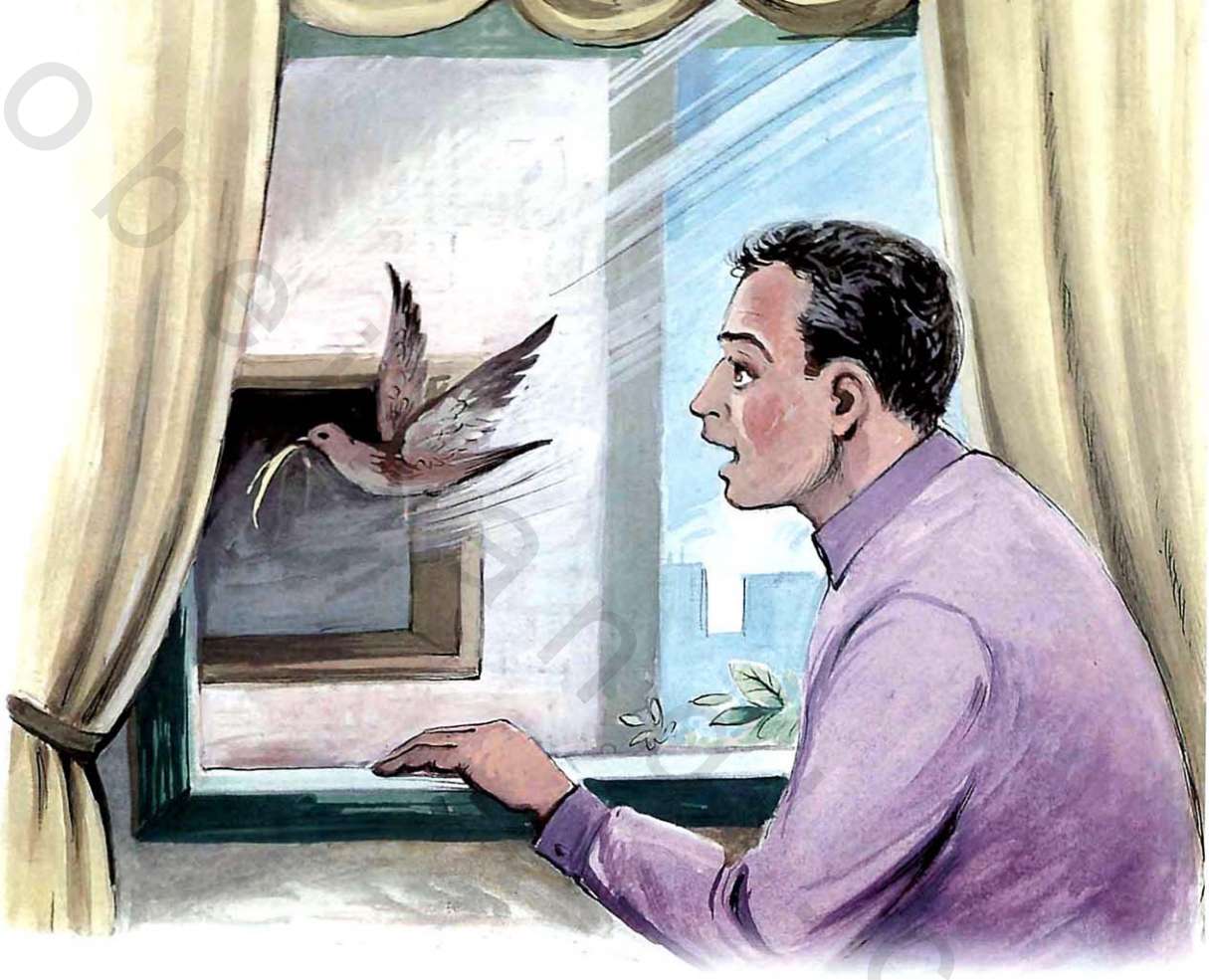

وَفجْأةً طَارتِ اليمَامةُ، ونَهبَتْ مِنْ حَيثُ أَتَتْ، وَظَننتُ أنَّها لَحظةٌ عابرةٌ وَانتهَتْ، فَذهبْتُ إلَى حَالِي. وَبعدَ سَاعَةٍ مِنَ الزَّمانِ لَمحتُ وَأنَا فِي حُجرَتِي نَفسَ اليمَامَةِ البَديعَةِ تَقفُ فِي نَفْسِ المكَانِ،

فَسُرِرتُ لرؤيتِهَا مَرةً
أخــرَى، ولاحظْتُ أنَّ
فِى منْقَــارِهَا عُــوداً
خَفِيفًا مِنَ القَشِّ، كما
لاحَظْتُ أنَّ أرضِــيــةَ
الفَتحَةِ الصغَيرةِ التِى
تَقِفُ فيهَا اليمَامَةُ بِهَا
العَــدِيدُ مِنْ أعــوادِ
الــقَــشِّ ذَاتِ الــلَّــونِ
الأَصْــفَــرِ النَّهَبِىِّ

وكأنها تأتى بها من أشعة الشمس الذهبية، فتأكد لى أن هذه اليمامة قد اختارت هذا المكان الآمن الهادئ غير المأهول بالسكان؛ لتبنى فيه عشها .. وانتابتنى حالة من الرضا وانشراح الصدر لهذه الجارة الجديدة الوديعة التى سأسعد برؤيتها كل يوم، والتى ستطمئن بها نفسى وأنا أسمعها فى كل صباح وهى تنادى بصوتها المعهود:

«اعبدو ربكو .. اعبدو ربكو».

ومرت الأيام، وأنا بين الحين والآخر أراقب هذه اليمامة البديعة، وخاصة بعد أن أكملت بناء عشها الرقيق من أعواد القش الذهبية؛ ولاحظت أنها تكثر الجلوس فى هذا العش فتنبأت أنها بلغت، وهى تقوم بواجباتها نحو الرقاد على البيض حيث الأمل فى صغار يكملون المسيرة .. وصدق حدسى فما هى إلا أيام معدودة حتى سعدت ذات صباح بيمامتين صغيرتين قد حلتا فى العش الصغير، واليمامة الأم تختفى قليلا ثم تعود تحمل بعض الغذاء فى منقارها للصغيرتين .. الأم هى الأم فى كل الكائنات، هى منبع الرحمة وفيض الحنان، وصدق أمير الشعراء أحمد شوقى عندما وصف رحمة الرسول الكريم ﷺ بأنها رحمة الأم والأب، فى قوله:

وإذا رحمت فأنت أم أو أب

هذان فى الدنيا هما الرحماء

وكانَ خَوفِي يَزدادُ كُلَّ يَومٍ مِنْ مَجيءِ جيرانٍ يَستأجِرونَ الشُّقةَ ويخرِبُونَ العُشَّ على أصحابِه،

ولكِنَّ اللهَ سَلَّمَ ولَمْ يَحدُثْ شَيءٌ، وزادَتْ سعادَتِي وأنَا فِي كُلِّ يَومٍ أرَى اليمامَتَيْنِ الصَّغيرتَيْنِ تكبُرانِ

شيئاً فشيئاً، ويزداد نموُّ الريش البديع المنظر وهو يكسو جسمهما الرقيق، حتى صارا في طورٍ من النموّ يسمح بتجريب الطيران والاعتماد على النفس في أمور الحياة. وفعلاً لمحتُ في صباح أحد الأيام أنَّ العشَّ يضمُّ فقط إحدى اليمامتين الصغيرتين، فاستنتجتُ أنَّ أختها ذهبت مع الأم للتدريب على الطيران. وعلى قدر ما سعدتُ بهذا التغيُّر، وأنَّ الحياة استضافت هاتين اليمامتين الرقيقتين؛ على قدر ما شعرتُ بنوع من الأسى لقرب موعد الفراق بيني وبين أفراد هذه العائلة..

ونظرتُ في اليوم التالي ناحية العشِّ فوجدتُ أنَّ الحال على ما هو عليه، فاليمامة الصغيرة بمفردها ولم تعد الأمُّ أو الشقيقة، فانزعجتُ لهذا الوضع، ومما زاد من انزعاجي وقلقي أنَّ اليمامة الصغيرة تفتح منقارها وتغلقه، وظننتُ أنها تفعل ذلك من شدة الجوع والعطش والوحدة، وهي في هذا السجن لا تستطيع أن تغادره بمفردها.

ومرَّت أربعٌ وعشرون ساعة أخرى والوضع كما هو لم يتغيَّر، وأصبتُ بقلق وخوف شديدين على تلك المخلوقة الضعيفة التي لا تعرف من الدنيا سوى أمها وشقيقتها وهذا العشُّ الذي لا تستطيع منه فكاكاً، ولقد ذهبت الأمُّ والشقيقة بلا عودة، فماذا عن مصير هذه المسكينة .. إنها لا تستطيع الطيران، ولا تستطيع التحرُّك من مكانها.. فلا طعام ولا شراب ولا مؤانسة.

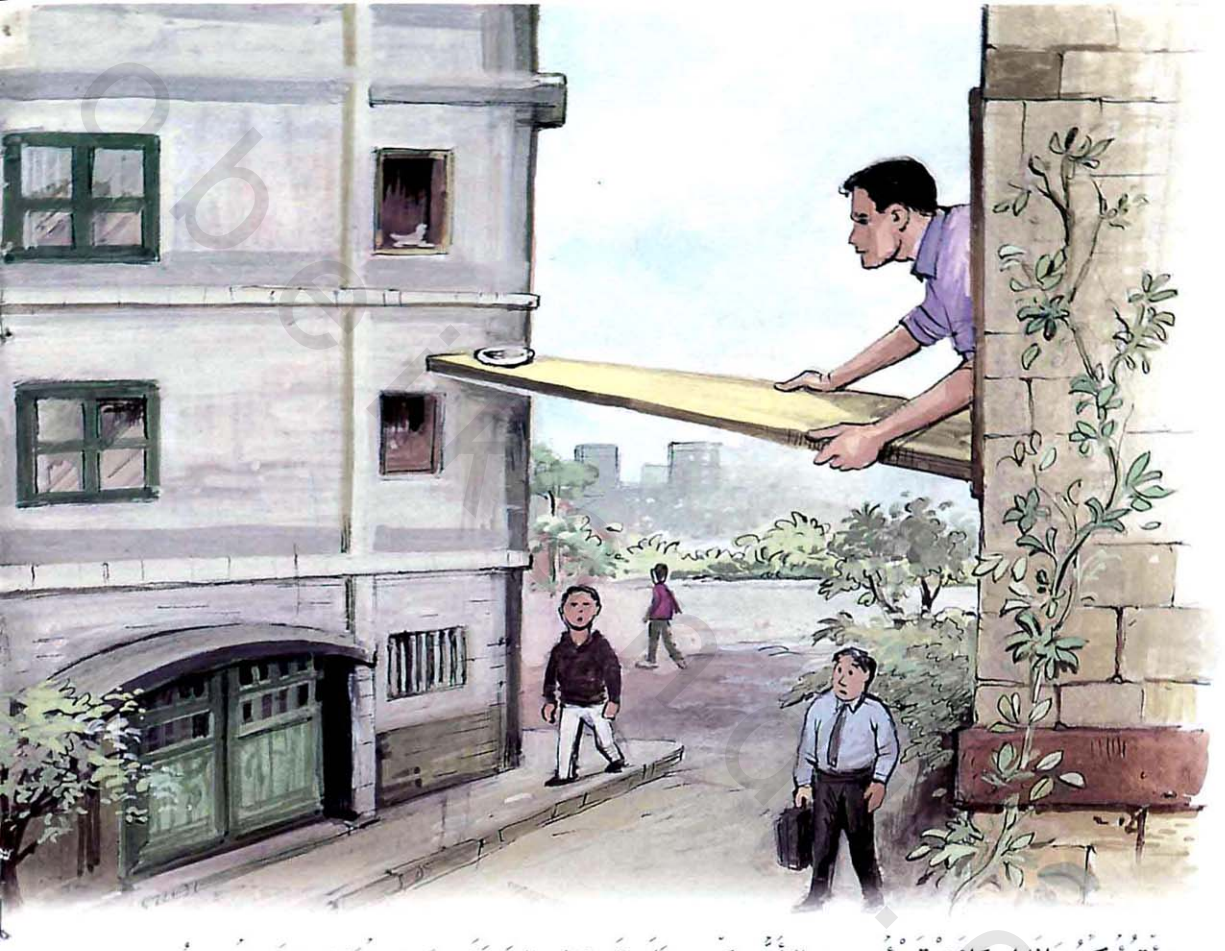

وبدأتُ أفكرُ ماذا لو كانتْ قدْ أُصيبتِ الأمُّ بمكروهٍ، ولَم تستطعِ العودةَ هيَ وابنتُها، كيفَ ستواجهُ هذهِ الصغيرةُ قدرَها، وهيَ التي لَم يمضِ علَى وجُودِها فِي هذهِ الدنيا سوَى أيامٍ قليلةٍ؟

ووجدتُ نفسِي - ودُونَ إرادتِي - أتبنَّى أمرَ هذهِ المخلوقةِ، وأهتمُّ لموضُوعِها اهتمامًا شديدًا، وبدأتُ أفكرُ جديًا، وأسألُ نفسِي: ماذا يجبُ علَيَّ أنْ أفعلَ لهذهِ الأسيرةِ الصغيرةِ، وما ينبغِي أنْ أقدمَهُ

نحوها. إنَّ أحداً فى هذه الدُّنيا لا يشْعُرُ بها، أنا الوحيدُ الذى ألاحظُها وأراقبُها، وأشعرُ بما تُعانيه من موقفٍ حرج.. وبدأتُ فى وضْعِ بعْضِ الحلولِ المحتملةِ لهذه المشْكلة:

الحلُّ الأولُ: أنْ أبْحثَ عنْ صاحبِ البيْتِ الجديد، وأجعلهُ يفتحُ لى بابَ الشقةِ التى تقطنُ اليمامةُ الصغيرةُ إحدى فتحاتها الضيقة وأقدمَ لها ما يلزمُها منْ طعامٍ أو شراب.. ولكنْ أينَ أبحثُ عنْ صاحبِ هذا البيْت؟ وهلْ أسْلمُ منْ سُخريته عندما يعلمُ حقيقةَ أمْرى؟

الحلُّ الثانى: أحاولُ الحصُولَ على لوْحٍ خشبىٍّ طويلٍ أقدمُ منْ خلاله الطعامَ والشرابَ لهذه الصغيرةِ منْ نافذتى القريبةِ من عشها. ولكنْ منْ أينَ لى بهذا اللوحِ الخشبىِّ؟.

الحلُّ الثالثُ: أستدعى رجالَ المطافئِ بسلمهم العالى لإنقاذِ هذه الأسيرةِ الصغيرة، ولكنْ هلْ سيقْتنعُ رجالُ المطافئِ بأهميةِ هذا العملِ بجانبِ دورهمُ الأسلسىِّ فى إطفاءِ الحرائق؟

وأصبتُ بإعياءٍ شديدٍ فى تفْكيرى ولمْ أهْتدِ إلى الحلِّ المناسبِ لهذه المشْكلة.. واضْطجعْتُ على سريرى وأنا أتمتمُ فى نفْسى.. ماذا أفعلُ؟ ماذا أفعلُ..؟ إنَّ هذه المسْكينةَ لو هلكتْ فسوْفَ أشعرُ بعُقْدةِ ذنْبٍ لا أعْرفُ كيفَ سأتخلصُ منْها.

وما هىَ إلا لحظاتٌ حتَّى رُحْتُ فى النَّوم، وغرقْتُ فى سُباتٍ عميق. ورأيتُ فيما يرى النَّائمُ أننى أجْلسُ نفْسَ الجلْسةِ فى حُجْرتى وبجوارِ النافذة، وأنا أنظرُ إلى اليمامةِ الصغيرةِ وهى فى أسْرها تنظرُ ناحيتى.. وما هى إلا لحظاتٌ وإذا باليمامةِ الصغيرةِ تطيرُ نحْوى وتقفُ أمامى على حافةِ النَّافذةِ دُونَ خوْف.. وفُوجئتُ بها تُلقى علىَّ السَّلامَ وقالتْ:

- السَّلامُ عليكمْ أيُّها الجارُ العزيزُ..

فرددْتُ فرحاً بقُدومها: وعليكمُ السَّلامُ ورحمةُ اللهِ وبركاتُه أيَّتُها اليمامةُ الرَّقيقةُ.

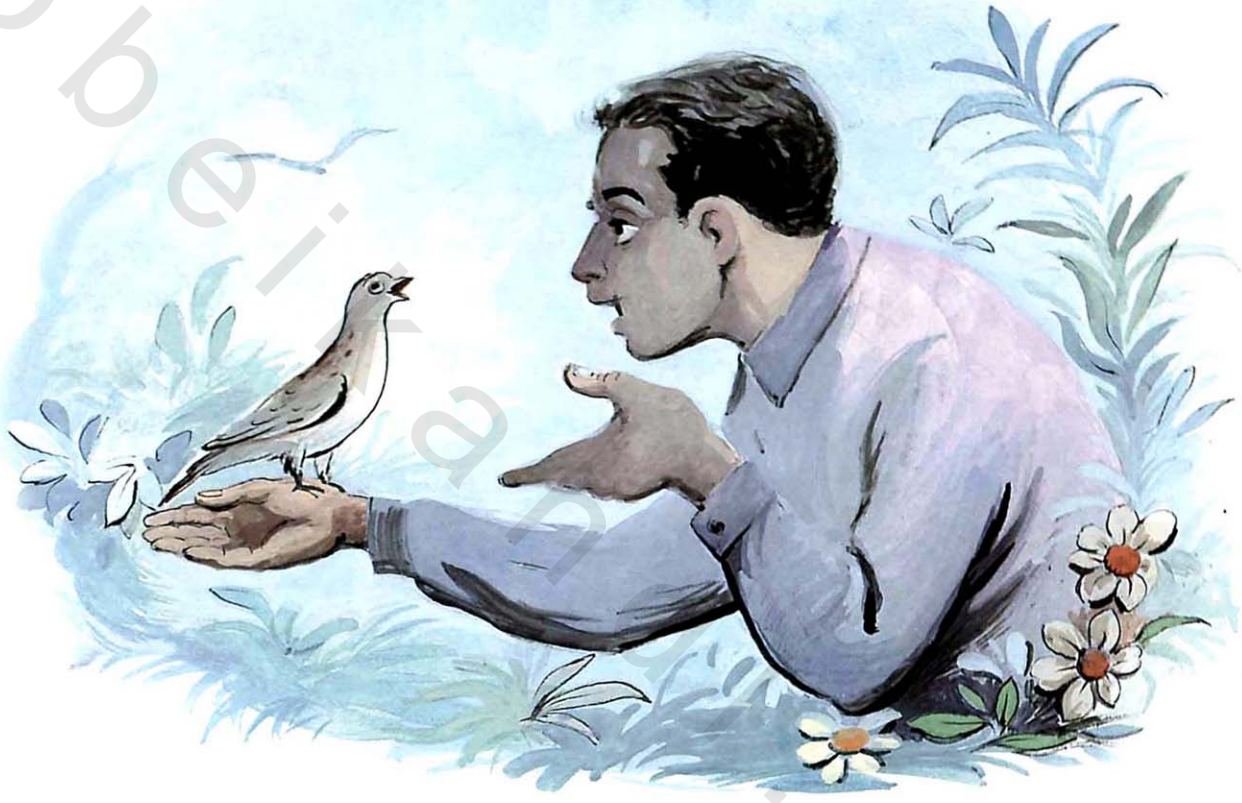

قالتْ وكأنَّها تبتسمُ لى: أشكرُكَ على اهتمامِكَ بى .. ولكنْ لِمَ تقلقُ علىَّ كلَّ هذا القلقِ؟

فقلتُ شارحًا: لقدْ تركتْكِ أمُّكِ وشقيقتُكِ أيَّتُها الصغيرةُ، فأصبحتِ وحيدةً .. لا ماءَ ولا طعامَ ولا أنيسَ .. ولا أحدَ يدرى بكِ فى هذهِ الدُّنْيا إلا أنا منْ هذا المكانِ وأنْتِ فى عُشِّكِ هذا لا تستطيعينَ أنْ تبرحيهِ .. أليْسَ فى هذا كلِّهِ سببٌ وجيهٌ كىْ أقلقَ عليكِ وأنتِ فى هذهِ المحنةِ العصيبةِ.

ردت اليمامةُ بصوتٍ يكسوهُ الإيمانُ: لا أحدَ يدري بي!! أستغفرُ اللهَ العظيمَ.. أظنُّكَ تقصدُ لا أحدَ يدْري بي من البشرِ .. أو الطيْرِ..؟

قلْتُ مُسرعًا وقد بدأتُ أفهمُ مغْزى كلامِها: نعمْ .. نعمْ .. أقصدُ هذا..

قالتْ: إذا كانَ لا يدري بي أحدٌ من البشرِ أو الطيْرِ سواكَ، فإنَّ ربَّ البشرِ وربَّ الطيرِ وربَّكَ يدْري بي ويرْعاني ولا ينْساني.. ربّي وربُّكَ أيُّها الجارُ العزيزُ.. أما سمعْتَ قولَهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وما من دابَّةٍ في الأرْضِ إلاَّ على اللهِ رزْقُها ... (٦)﴾ (هود)، وقولَهُ عزَّ من قائلٍ: ﴿إنَّ اللهَ هو الرزَّاقُ ذو القُوَّةِ المتينُ (٥٨)﴾ (الذاريات).

فقلْتُ في حياءٍ: صدَقَ اللهُ العظيمُ.. سُبحانَ اللهِ وأستغْفرُهُ وأتوبُ إليْهِ.. أقلبُكَ الصغيرُ يا صغيرتي ممتلئٌ بكلِّ هذا الإيمانِ، وأدركْتَ ما غابَ عنْ قلْبي .. يا سبحانَ اللهِ.. ولكنْ كيفَ وصلَتْ إليكَ هذهِ الحكمةُ البالغةُ، وذاكَ الإيمانُ الراسخُ وعمرُكَ في الدنيا ليسَ سوى أيَّامٍ معدودةٍ ..

ردَّتِ الصغيرةُ المؤمنةُ بريقَها في سلاسةٍ وعذوبةٍ: إنَّها الفطرةُ يا جاري العزيزُ .. الفطرةُ التي فطرَني عليْها فاطرُ السمواتِ والأرْضِ .. القادرُ على كلِّ شيءٍ .. سُبحانَهُ وتعالى .. إنَّني في معظمِ الأوقاتِ أُصلّي للهِ شكْرًا وأسبّحُهُ حمْدًا .. بلْ إنَّ أمّي دائمًا في كلِّ صباحٍ تُنبهُ الطيْرَ والبشرَ والشجرَ أنْ يذكروا دائمًا خالقَهُمُ العظيمَ ويعبدُوهُ.

قلْتُ وكأنّني تلميذٌ في مدرسةِ هذهِ المخلوقةِ الرقيقةِ المؤمنةِ: نعمْ .. نعمْ .. فنحنُ نسمعُها دائمًا وأمثالَها وهي تردِّدُ في كلِّ صباحٍ: «اعبدُوا ربَّكُمُ .. اعبدُوا ربَّكُمُ».

ثمَّ سألتُها في دهشةٍ: ولكنْ إلى متى تتركُكِ أمُّكِ دونَ طعامٍ كلَّ هذهِ الفترةِ الزمنيَّةِ؟

ردَّتْ بنفْسِ السَّلاسةِ والعُنوبةِ: أُمِّى لَمْ تتركْنِى .. فهِىَ تأتِى فِى الصَّباحِ البَاكِرِ وتعطِينِى مَا يكْفِينِى مِنْ غِذاءٍ مِنْ منقارِهَا الحنُونِ طوالَ اليومِ.

قُلتُ: ومَاذَا عَنْ أختِك..؟

قَالتْ: أُختِى ذهبَتْ مَعَ أُمِّى فِى عُشٍّ جَدِيدٍ أقَامتْهُ أُمِّى، يقَعُ عَلَى شَجرةٍ وارِفةٍ تُطِلُّ عَلَى الوادِى الأَخضرِ فِى نهايةِ المَدِينةِ، وعَلِمتُ مِنْ أُمِّى أنَّهَا قَدْ تعلَّمتِ الطيرانَ بتوجيهَاتٍ مِنْ أُمِّنَا العَزِيزةِ.

قُلتُ: هذَا عَنْ أُختِكِ .. فمَاذَا عَنكِ أنْتِ؟

قَالتْ: فِى الصَّباحِ البَاكِرِ ستَحضرُ أُمِّى، وبَعْدَ أنْ تُعطِينِى الغذَاءَ الكَافِى سَوْفَ تأخذُنِى إلَى العُشِّ الجَدِيدِ الَّذِى تسْكُنُهُ أُختِى، لأَتعلَّمَ الطيرانَ، وأَعتمِدَ عَلَى نَفْسِى للحفاظِ عَلَى حيَاتِى، وأَعبدُ اللَّهَ كثِيرًا.

قُلتُ فِى أسَى: مَعْنَى ذَلِكَ أنَّكِ سَترحَلِينَ .. ولَنْ أرَاكِ أبدًا.

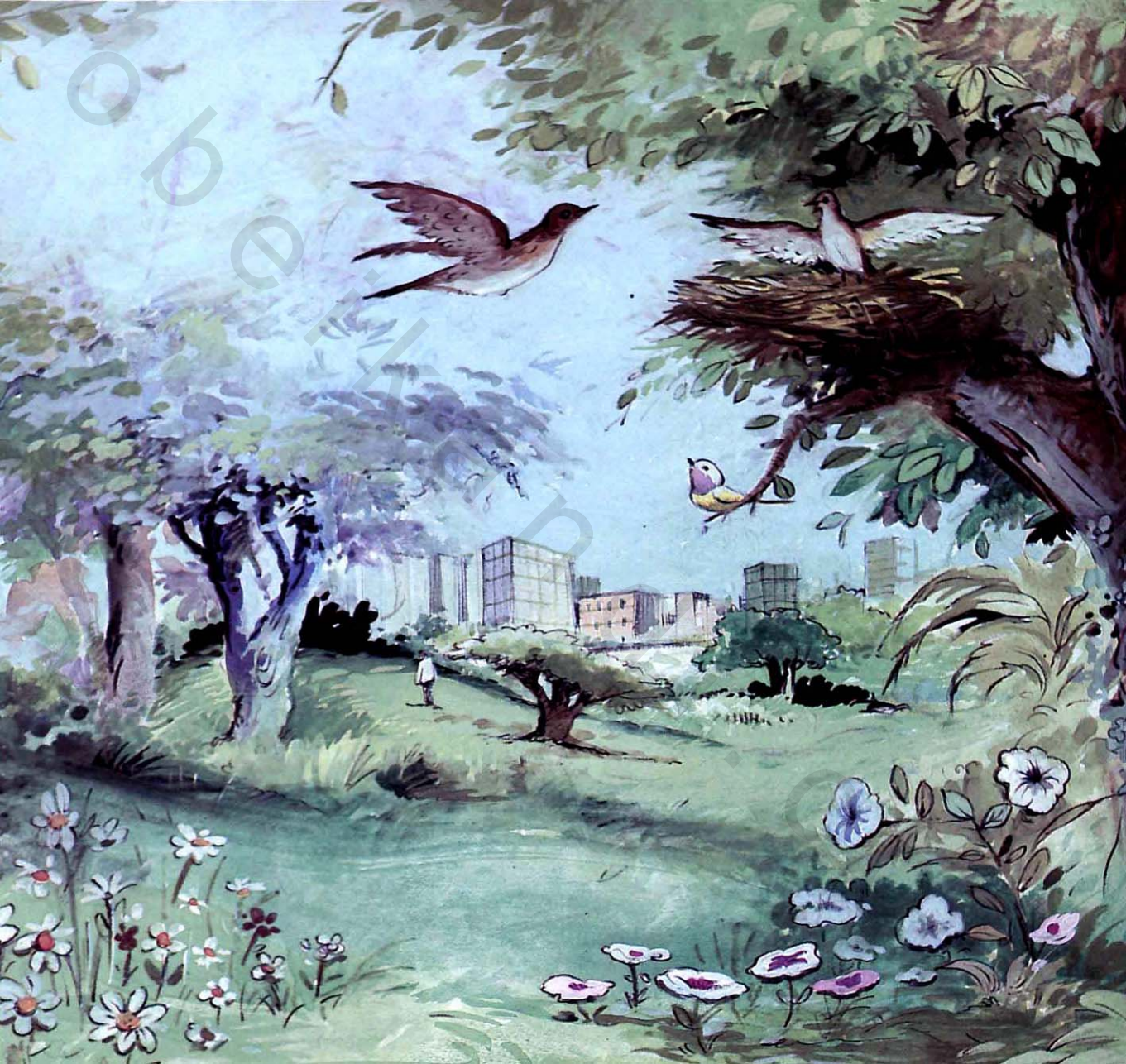

فَابتسمت ابتسامةً رَقيقةً وقالتْ: لا يا جارى العزيزُ، فبعدَ أنْ أتعلَّمَ الطَّيرانَ فى الهواءِ وأعتمدَ على نفسى، وأتحملَ مسئوليَّةَ حياتى، فسوفَ أحضُر إلى هذا المكانِ .. وسأنظرُ إليكَ إذا كُنتَ واقفًا عندَ هذهِ النَّافذةِ، وأُحيِّيكَ.

وسعدتُ بالحديث مع هذه المخلوقة الرقيقة الصغيرة المؤمنة .. وما هي سوى لحظات حتى فارقتني اليمامة الصغيرة، وطارت عائدة إلى مكانها في العش، وعندما استقرت عنده نظرت ناحيتي وهزت رأسها وكأنها تحييني.

وفجأة استيقظت .. وعندما فتحت عيني تذكرت هذا الحلم كاملا .. وتذكرت كل كلمات اليمامة الصغيرة وانشرح صدري .. وسعدت بهذا الحديث الإيماني .. وقمت من سريري ونهبت متلهفا إلى النافذة .. فرأيتها .. رأيت جارتي الصغيرة وسميرة أحلامي .. وعندما لمحتني هزت رأسها، وخلت أنها تبتسم لي وتحييني، فهززت رأسي أنا أيضا لأرد تحيتها وأنا أبتسم لها ابتسامة الجار لجاره والتلميذ لمعلمه.

وما هي سوى لحظات حتى رأيت اليمامة الأم وقد أتت لصغيرتها وأخذت تطعمها بمنقارها الحنون شيئا فشيئا حتى أكملت مهمتها .. وإذا بالأم تطير إلى حافة مبنى سكني ليس ببعيد .. وقبل أن تقوم اليمامة الصغيرة بأول محاولة لها في الطيران، التفتت ناحيتي وكأنها تحييني، ثم ألقت بنفسها في الهواء ورفرفت بجناحيها الرقيقتين في الهواء، فطارت ناحية أمها ووصلت إليها بسلام .. ونجحت الصغيرة في أول تجربة لها في الطيران بتقدير ممتاز، واقتربت الأم من صغيرتها وغرزت منقارها في ريش ابنتها عدة مرات وكأنها تقبلها على نجاحها في أول محاولة لها في الطيران .. ثم طارت الأم مرة أخرى لمكان آخر ليس ببعيد كذلك، ولحقتها ابنتها في محاولة أخرى للطيران بنجاح أيضا .. واختفت الأم بعيدا، واختفت وراءها اليمامة الصغيرة ..

واجتاحتنى مشاعرُ السعادةِ ومشاعرُ الأسى فى نفسِ الوقت، فقد سعدتُ بنجاةِ هذه اليمامةِ الرَّقيقةِ وحديثِها فى المنامِ الملفوفِ بلفائفِ الإيمان، وأيضًا شعرتُ بالأسى لفراقِها .. وبتُّ كلَّما رأيتُ أيةَ يمامةٍ على مبنًى قريبٍ منِّى، أو فى أثناءِ سيْرِى فى الطَّريقِ أتساءلُ بينى وبينَ نفسى: يا ترى هلْ هذه هى جارتى السَّابقةُ الرَّقيقةُ المؤمنةُ أمْ لا؟ وكُنتُ دائمًا لا أجدُ جوابًا لتسلؤلى.

اللَّهُمَّ قوِّ إيمانى.